ملف خاص بصوت البصرة

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية والنشر
الجمهورية العراقية

المجلد الرابع عشر - العدد الثالث ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٣

WWW.ATTAWEEL.COM

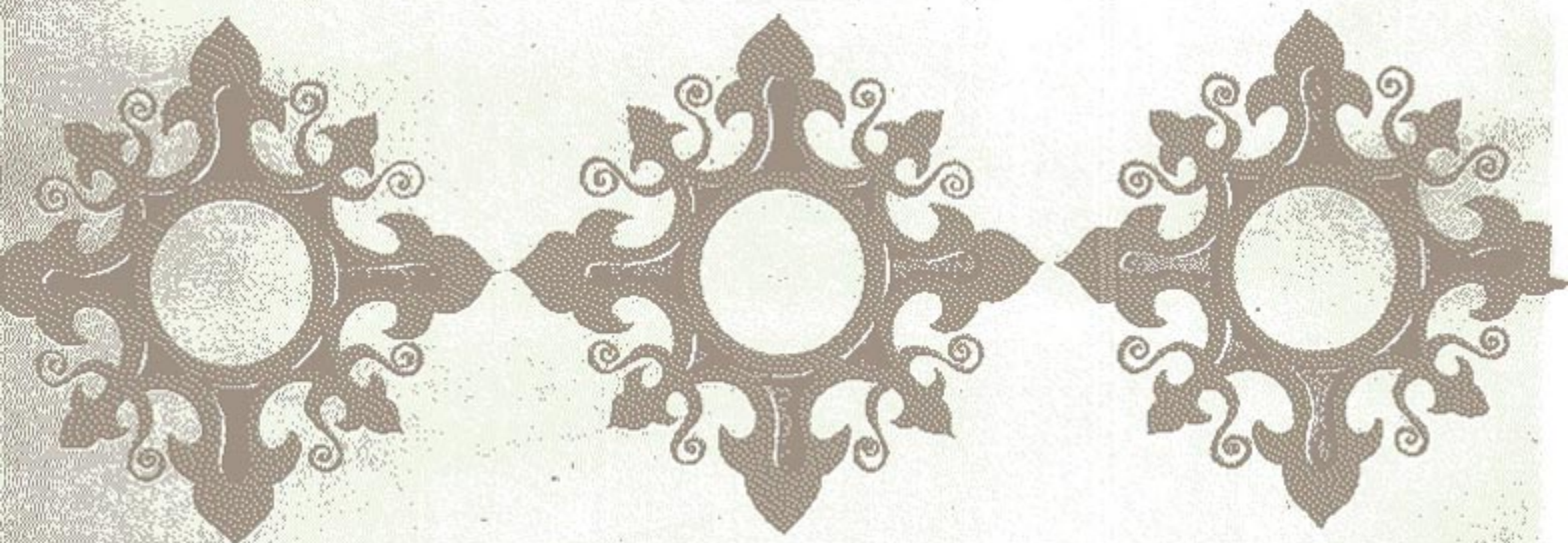

أسعد الحكيم محمد

من مظاهر صمود «أهل البصرة» في التاريخ العربي الإسلامي

الدكتور

فاروق عمر فوزي

أستاذ ... كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقدمة

إن تاريخ العديد من المدن العراقية العريقة يحوي تراثا زاخراً من المثل الحية التي تنير الطريق امام نابتة عصرنا لما تمده من عزيمة في تكوين الوجدان الوطني وشحذ الهمم واذكاء العزائم. والبصرة مدينة لها موقعها المتميز عبر تاريخنا العربي الاسلامي فقد برز من اهلها العديد من ابنائها الذين كانوا رموزاً يحتذى بهم في ميدان السياسة والحرب ورواداً تنهل الاجيال التالية من نتاجهم الثر في الفكر والثقافة والعلوم .

كان على العرب المسلمين بعد انتصاراتهم المتتابعة على الفرس الساسانيين ، ان يعيدوا النظر في اسس تنظيم الادارة في العراق وان يهتموا بأمر استقرار المقاتلة في امصار جديدة . وكان هذا الامر قد شغل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وقائده على جبهة العراق سعد بن ابي وقاص . ففي البدء كان العرب المسلمون قد اتخذوا من طيسفون (المدائن) ـ قصبة العراق وعاصمة الساسانيين الشتوية ـ مركزاً لهم ، الا انهم سرعان ما ادركوا عدم ملائمتها للاستقرار لاسباب عديدة(١) ، ثم ان الضرورة تقتضي ايجاد مراكز جديدة تكون عربية خالصة ونظامها اسلامياً بحتاً ، وهذا ما اراده عمر بن الخطاب حيث امر سعداً « ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا »(٢) . وهكذا اختط العرب من العراق معسكرين هما الكوفة والبصره لم يلبثا ان اصبحا مصرين وبتتابع السنين مدينتين مزدهرتين .

بدأت البصرة بداية متواضعة فقد اختطها عتبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب بالقرب من الابله وبنيت مساكنها من القصب ثم اعيد بناؤها باللبن والطين ثم كان زياد بن ابيه والي البصرة في العصر الاموي اول من بنى بالاجر والجص وسقف بالساج .

لقد كان الهدف المباشر من تاسيس البصرة عسكرياً صرفا غايته حشد المقاتلة في موقع استراتيجي عند ملتقى دجلة والفرات من اجل مراقبة طريق الخليج العربي عبر العراق وبلاد فارس . وكذلك ايجاد نقطة ارتكاز وتجمع عسكرية يمكن فيها تجميع المقاتلة من القبائل العربية بسرعة واستقبال الامدادات العسكرية من الجزيرة العربية والاستعداد لعمليات هجومية مستقبلية عبر بلاد فارس او من منطقة الخليج العربي واطرافها ، ولصد هجمات محتملة او التفاف عسكري متوقع من قبل الفرس . وعدا عن هذا وذاك فان منطقة البصرة كانت تسمى فرج الهند لمكانتها التجارية الوثيقة الصلة بالهند وجنوبي شرقي آسيا (٣) ، وكانت الابله في تلك الفترة ميناء العراق البحري الاول الذي يستقبل السفن المحملة بالبضائع التجارية من الشرق الاقصى ثم يحملها بطريق البر الى موانىء البحر المتوسط(٤) .

ثم ان منطقة البصرة وضواحيها تعتبر بحد ذاتها من المناطق الزراعية الخصبة حيث تكثر فيها زراعة النخيل وقصب السكر والمحاصيل الاخرى وهي اضافة الى هذا وثيقة الصلة باقليم عربي

WWW.ATTAWEEL.COM

قريب منها هو الاحواز الذي يعتبر من المراكز الاقتصادية المهمة بعد خراسان في زمن الساسانيين حيث يزرع فيه قصب السكر والرز وتكثر فيه معامل نسيج القطن والحرير .

لقد كانت البصرة ذات مركز اقتصادي مرموق وذات موقع استراتيجي متميز اما اتجاهها السياسي في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدولة العربية الاسلامية فكان يقرره « اهل البصرة » اي القبائل العربية التي استوطنت في البصرة بعد تمصيرها . فقد ضمت البصرة في الاصل عناصر بدوية من المقاتلة العرب ولهذا نلاحظ موقفا سياسيا متلونا وغير ثابت .

وكانت البصرة قد قسمت الى اخماس هي :

اهل العالية وتضم هذه الفئة بعض قبائل قريش وبجيلة واسد وخثعم وبني سليم .
تميم وهي اكبر قبيلة في البصرة وائرت على اتجاه الحياة السياسية والفكرية فيها(٥) ..
بكر بن وائل (ربيعة) .
عبد القيس وهي من اضعف القبائل . واخيرا الازد من اليمن

إن طابع البصرة خلال عصر صدر الاسلام كان التلون والتحدي بصورة عامة وهذا ما قرره بنو تميم . الا ان روايات عديدة اخرى تصفها في بدايات القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بأنها « عثمانية » ومعنى هذا الكلام في المصطلح السياسي في تلك الفترة ان البصرة محايدة في المعترك السياسي بين الفرق والاحزاب. فالبصرة عثمانية تدين بالكف ولعل الذي يمثل موقف البصرة هو الرد الذي صدر عن احد شيوخها المتنفذين حين دعى الى الاشتراك في حركة ضد الخلافة حيث قال : « ... اني لاارى القتال ولا ادين به »(٦) . ولعل هذا الموقف من اهل البصرة طبيعي ومفهوم اذا ادركنا ان الحركة التجارية بدات وبسرعة تنشط وتتوسع في هذا المصر وغدت البصرة تحتكر حركة البيع والشراء بين الحجاز والعراق وبلاد فارس واقاليم الخليج . ويعطينا الجاحظ قائمة بأصناف السلع والبضائع التي شاهدها في البصرة والتي كانت في غالبيتها مستوردة بحراً او براً . ومن المعروف أن ازدهار التجارة ونشاطها يتوقف على استتباب الامن والسلام والاستقرار في المنطقة والعكس صحيحا .

إن ما ذكرناه انفا لايعني انعدام الحركات والقلاقل في صدر الاسلام في البصرة . فكثيرا ما دفعت الظروف الانيه والضرورات السياسية والولاءات القبلية والامزجة الشخصية للمتنفذين بعض القبائل او الافخاذ من قبائل معينة الى تاييد هذه الحركة او تلك ضد سلطة الخلافة . بينما تقف قبائل اخرى مع الخلافة ضد الحركة المناهضة لها .

لقد بدا دور البصرة قياديا بارزا في العصرين الراشدي والاموي ولم يكن من قبيل المصادفة ان تناط مسؤولية الفتوحات العربية الاسلامية لاقاليم بلاد فارس الجنوبية باهل البصرة . كما لم يكن اعتباطا ان تكون البصرة مسؤولة اداريا وسياسيا عن اقاليم الخليج العربي اضافة الى بلاد فارس .

فبعد اقل من خمسة عشر عاما على تاسيس البصرة اشترك اهلها بقيادة عبدالله بن عامر في فتح كرمان واقليم فارس كله وكذلك سجستان وخراسان(٧) . وقبل ذلك بقليل لعب اهل البصرة بقيادة عتبة بن غزوان المازني دوراً مهما في تحرير الاحواز من السيطرة الساسانية وتامين مؤخرة الجيوش العربية الاسلامية وهي منشغلة في حروب العراق من التطويق من قبل الفرس .

فقد كان من المتحمل ان تهاجم قوة ساسانية مؤخرة المسلمين وتطوقهم بالالتفاف من ناحية البصرة وبذلك تجعلهم في موقف عسكري حرج ، ولهذا كتب عمر بن الخطاب الى عتبة المازني بمناوشة الفرس ومشاغلتهم . وقد استطاعت قوات اهل البصرة بقيادة عتبة منع النجدات الفارسية من التقدم والالتفاف .. الا ان الذي حدث هو وصول الهرمزان الى الاحواز حيث كانت له طاعة وولاء وبدا يحشد القوات الفارسية(٨) .

طلب عتبة المازني من سعد بن ابي وقاص المدد فأمده برتلين .. وساعدت بعض القبائل في الاحواز قوات المسلمين حيث انضم بنو العم الى الجيش الاسلامي واحدثوا اضطراباً في مناذر ونهر تيري . وقد اجبر رحجان كفة المسلمين في القتال الهرمزان على طلب الصلح . وغدت مناذر ونهر تيري مسلمتين للبصرة . ولكن الهرمزان كان مخادعا حيث نقض الصلح فارسل عتبة المازني بنجدات جديدة من اهل البصرة الى المقاتلة الرابضين في مسالح البصرة والى بني العم من عرب الاحواز . فكانت معركة سوق الاهواز من المعارك المهمة التي ابلى فيها اهل البصرة بلاءا حسنا حيث سحقت القوات الفارسية ودخل البصريون الاحواز وتستر . وعاد الهرمزان فطلب الصلح فاجابه العرب المسلمون الى ذلك باستثناء ما فتح عنوة(٩) .

وعدا ذلك فان مما يشار اليه من بلاء « اهل البصرة » في حروب التحرير والفتح الاسلامية هو نجدتهم لحملة العلاء بن الحضرمي امير البحرين . ففي الوقت الذي كانت الحرب على اشدها في الاحواز بادر العلاء الى ركوب البحر باتجاه شواطىء الخليج الشرقية مستهدفا اصطخر دون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب . ولقي العلاء مقاومة شديدة خاصة بعد غرق سفنه . وقد انتدب عتبة بن غزوان « اهل البصرة » بقيادة عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والاحنف بن قيس حيث خلصوا اهل البحرين من الحصار وانسحبوا بهم باتجاه البصرة .

لم يكن هدف الخلافة حينذاك الدخول في عمق الاراضي الفارسية ولكن اصرار يزدجرد وقادته على تحشيد القوى ومحاولة الالتفاف على الجيوش العربية الاسلامية من جهة الخليج والبصرة بشن هجمات معاكسة مما جعل القتال ضد الفرس يتواصل ويستمر دون توقف . ومهما يكن من امر فقد استطاع المقاتلة من اهل البصرة بعد معارك طاحنة تحرير بقية اقليم الاحواز والسيطرة على رامهرمز والسوس وتستر التي تداولتها الايدي العربية والفارسية غير مرة . ولعلنا نشير الى رواية تاريخية واحدة توضح استبسال المقاتلة العرب من « اهل البصرة » وغيرهم بقيادة الاشرس بن عوف الشيباني ، فقد تحصن الفرس بقيادة الهرمزان في تستر ولكن المغاوير استطاعوا دخولها ليلا بمساعدة بعض الفرس وفتحوا ابوابها ودارت معركة حاسمة انتهت بانتصار العرب وتحرير تستر عنوة . وللمرة الثالثة طلب الهرمزان الامان وللمرة الثالثة يعطيه العرب المتسامحون الامان حيث ارسل مخفورا الى المدينة لمقابلة الخليفة عمر .

وهكذا لعبت البصرة واهلها دورا متميزا لا في تامين مؤخرة الجيش العربي الاسلامي الذي يقارع الفرس على الجبهة الشرقية في جلولاء ونهاوند . بل في ضمان امن القوات العربية الاسلامية التي توغلت في اقليم الاحواز واقليم فارس كما حدث في حملة العلاء بن الحضرمي وفي المعارك الفاصلة التي تلتها ... ان الدور الذي لعبته البصرة خلال هذه السنوات الحرجة من المجابهة مع الفرس وما سطره ابناؤها من المقاتلة العرب المسلمين في معارك اصطخر وتستر ورامهرمز والسوس من معاني البطولة وروح الصمود ، هو الذي جعل القيادة السياسية والعسكرية في المدينة المنورة تزيد اهتمامها بالبصرة بحيث غدت قاعدة من القواعد الرئيسية للحملات العسكرية التالية ، وقد كان رصيد « اهل البصرة » في الفتوح ـ كما تشير اليه روايات البلاذري ـ كبيرا يجدر باهل البصرة ان يفخروا به : ذلك ان من فتوحهم اقليم فارس وكرمان وسجستان واصبهان والاحواز وخرسان ... وهذا سجل حافل في اي مقياس من المقاييس العسكرية !!

لقد بقيت البصرة ولاية مستقلة تابعة للخليفة الراشدي يعين عليها من جانبه وال حتى سنة ٥٠هـ حين جمع معاوية بن ابي سفيان العراقين (اي البصرة والكوفة) الى زياد بن ابيه وهو اول وال جمع له المصران(١٠) وقد سار اكثر خلفاء بني امية على نهج معاوية الاداري هذا . الا اننا يجب ان نستدرك ونقول ان تعيين وال واحد على البصرة والكوفة لا يعني دمجهما في وحدة ادارية واحدة بل ان زياد بن ابيه كان يتناوب السكنى في المصرين . كما ان بناء واسط في ولاية الحجاج الثقفي لم يؤثر على البصرة او الكوفة . والمعروف ان هدف الحجاج في اتخاذه واسط كان اداريا وعسكريا صرفا حيث تشير رواية تاريخه الى قوله : « اتخذ مدينة بين المصرين اكون بالقرب منهما ، اخاف ان يحدث في احدى المصرين حدث وانا في المصر الآخر »(١١) .

وكان والي البصرة او والي العراقين فيما بعد ـ اضافة الى مسؤوليته العسكرية انفه الذكر ـ مسؤولا عن ادارة عدد من اقاليم بلاد فارس حيث جمعت في يديه ادارة العراق (السواد) وسجستان والجبال وكرمان وخراسان والبحرين وعمان والهند . فكان يعين الامراء والعمال وقادة الفتوح في هذه الاقاليم معظم عهود العصر الاموي(١٢) .

وهكذا غدا العراق بمصريه البصرة والكوفة ـ والذي لم يكن سابقا سوى جزء محتل من قبل الدولة الفارسية الساسانية ـ غدا في العصر العربي الاسلامي الاقليم الذي يسيطر اداريا وسياسيا وعسكريا على كل بلاد فارس تقريبا وهذا امر لم تكن تتصوره ملوك الفرس ودهاقنتها ورجال دينها المجوس (الموابذة) حيث لم يطيقوا حقيقة خضوع بلاد فارس للدولة العربية الاسلامية ولهذا امضوا في التصدي والتآمر وهذه هي « العقدة الفارسية » التي ظهرت بمظاهر عديدة منها الشعوبية والخرمية .

لقد افرزت الاحداث الجسام التي مرت على البصرة سواء في حالات النهوض او حالات التدهور انماطا من المواقف الخالدة تجلت فيها روح التضحية والصبر والصمود ، ونماذج من رموز البطولة

والفداء اعتبرهم التاريخ العربي الاسلامي عناوين بارزة نابعة من تربة البصرة العربية افتخرت بها الاجيال واعتز بها الوطن .

إن الازمات الحادة تزيد من اهتمام الجماهير بالقائد المنقذ والبطل الوطني او القومي تتطلع اليه ليخلصها من الازمة ويقودها منتصرة الى السلام .. وعبر تاريخ البصرة ظهر العديد من هؤلاء الابطال في الوقت المناسب . ويقدر ما يتعلق الامر بحدود بحثنا ، نشير الى قطبة بن قتادة السدوسي اول من قارع الاحتلال الفارسي الغاشم في نواحي البصرة قبل الاسلام . ثم عتبة بن غزوان المازني اول من اصطدم بالفرس في جبهة البصرة في الاسلام وعلى عهد عمر بن الخطاب ثم عبدالله بن عامر والاحنف بن قيس التميمي حيث تم على ايديهما فتح بلاد فارس التي انيطت مسؤوليتها بقاعدة البصرة ومعاقلها . وزياد بن ابيه الذي وطد الامن وعمل على استتباب النظام والاستقرار بعد الفوضى فازدهرت البصرة فكريا واقتصاديا على عهده . والمهلب بن ابي صفرة الذي استنهض الهمم واذكى نخوة الناس وغيرتهم للدفاع عن تربة وطنهم وحماية شرفهم من خطر الازارقة الارهابيين القادمين من فارس واصبهان . ولا نعدو الحقيقة التاريخية اذا قلنا بان المهلب هو رمز البطولة ومعناها الكامل عند « اهل البصرة » الذين سموا مدينتهم « بصرة المهلب » وحينما يذكر خطر الازارقة يذكر معه اسم البطل المهلب الذي دفع خطرهم عن البصرة. وحينما تذكر حركة الزنج الهدامة تتذكر الاجيال اعداد كبيرة من شهداء اهل البصرة المعروفين والمجهولين. كما يشار بالبنان الى البطل الخالد الامير العباسي (الموفق) الذي انقذ البصرة واهلها من صاحب الزنج وزمرته . وتتوالى الاحداث والازمات ويزدان سجل الشرف برموز البطولة والفداء . ولهذا فان مصادرنا التاريخية تشير الى بيوتات كانت تفخر بها البصرة لمواقفها المشرفة اثناء المحن والازمات . ففي رواية ان البصرة استوطنت فيها اربع بيوتات تتمثل فيها النخوة والشهامة والشرف العربي وهي: آل زرارة وآل زيد وآل الدئل وآل القيس(١٣) . وفي رواية اخرى يشار الى بيت بني المهلب بن ابي صفرة ، وبيت مسلم بن عمرو الباهلي من قيس ، وبيت بني مسمع من بكر بن وائل ، وبيت آل الجارود من عبد القيس(١٤) . ولابد ان يشار هنا الى الاحنف التميمي . لم يقتصر التحدي على الصعيدين السياسي والعسكري بل شمل الفكر والثقافة . فالمعروف ان البصرة ضمت الى جانب سكانها العرب وهم الغالبية المطلقة ، اقليات صغيرة من الزط (من جنوبي شرقي آسيا) والزنج (من سواحل افريقيا الشرقية) والفرس النازحين من بلاد فارس . وقد ادى هذا الخليط السكاني الى ظهور العديد من الفرق والحركات الدينية السياسية والى تصادم الاراء والافكار مع بعضها البعض . ولعل اكبر خطر عصف بالحياة الفكرية والثقافية بل حتى السياسية والادارية في البصرة والعراق عموما هو خطر الشعوبية والزندقة . وقد اثبتت البصرة ان للقلم والسلاح قوة واحدة وهدفا واحدا فبرز من اهلها العديد من المفكرين الذين تصدوا للحركات الهدامة التي ارادت النيل من العروبة والاسلام نذكر منهم رؤوس المعتزلة واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد ثم الجاحظ . بل ان العديد من علماء البصرة واعلامها الذين الفوا في اللغة العربية وادابها وفي قبائل العرب وتاريخهم كانوا ، بطريقة او بأخرى ، يردون على هجمات الشعوبية وتشكيكهم بلغة العرب وانسابهم ودورهم في التاريخ والحضارة ... نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الخليل بن احمد الفراهيدي وسيبويه والاصمعي ورؤبه بن الحجاج وابن دريد والمبرد والجاحظ والحربري والحسن بن الهيثم وابي بلال مرداس بن ادية التميمي وغيرهم .

ليس الغرض من هذا البحث تتبع تاريخ البصرة العريق والحافل بالاحداث الجسام . . ولهذا وبقدر ماتسمح لنا به حدود البحث المقررة ، سنعمد الى صور من تاريخ البصرة نختارها ونستجلي فيها روح الصمود ومعاني البطولة التي تدل على معدن اهل البصرة الصريح بعروبته واسلامه وولائه للأرض .

البصرة ومحنة الازارقة :

الازارقة نسبة الى زعيمها نافع بن الازرق من فرق الخوارج المتطرفة التي تدين بالارهاب وتتبع أسلوب القتل الجماعي ضد معارضيها وتكفر كافة المسلمين الذين يختلفون معها عقائديا او سياسيا . وقد انتشرت في اقليم فارس وامتدت الى سجستان والاحواز واصبهان ، ويبدوا ان تواجدها في البيئة الفارسية قد غير وبدل من ارائها كفرقه خارجية وجعلها تنحو منحى التطرف عقائديا وتتبع اسلوب الارهاب لنشر مبادئها وسحق معارضيها والوصول الى اهدافها(١٥) .

بعد استيلاء عبدالله بن الزبير على العراق وهروب الوالي الاموي عبيدالله بن زياد الى الشام وجد الازارقة متنفسا لتنظيم صفوفهم وبث دعوتهم

خاصة بعد الشدة التي لاقوها في ايام ولاية زياد بن ابيه على البصرة على عهد معاوية بن ابي سفيان .

وكان نافع بن الازرق الحنظلي قد استولى على الاحواز سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م ثم مد نفوذه الى اقليم فارس وطرد ولاة الخلافة وعمالها من هناك . وبعد ان شعر بقوته واستفحال نفوذه تقدم نحو البصرة . ولكن اهل البصرة كانوا له بالمرصاد حيث وحدوا صفوفهم وتناسوا خلافاتهم القبلية والسياسية في سبيل الدفاع عن تربة موطنهم وشرف اهلهم فطاردوه واجبروه على التقهقر حتى دولاب (قرية جنوبي شرقي البصرة) . وهناك وقعت معركة (دولاب) المشهورة حيث كان قائد اهل البصرة مسلم بن عبيس وكان زعيم الازارقة نافع بن الازرق . وقد اقتتل الجيشان حتى تكسرت الرماح في ايديهم وكثرت الجراح والقتول ، فكان من بين القتلى اميرا الجيشيين .

الا ان اهل البصرة صمدوا وامروا عليهم الحجاج بن باب الحميري بينما امر الازارقة عبيد الله بن الماحوز التميمي ، ودارت معركة حامية قتل فيها الاميران الجديدان فاختار اهل البصرة ربيعة الاجذم التميمي بينما اختار الخوارج عبدالله بن الماحوز التميمي ، واستمر القتال دمويا حتى ملت العساكر وبعد مقتل قائد البصريين ربيعة التميمي اخذ الراية حارثه بن الغداني واخذ يناوش الازارقة ليمنعهم من الاتجاه صوب البصرة وقد هال الخبر اهل البصرة حين علموا بتوجه الخوارج الازارقة نحوهم ، واخرج كثير من الناس عوائلهم من المدينة . وقد تداول رجالات البصرة مع الاحنف بن قيس التميمي لتدبر الامر ، فاشار الاحنف على والي البصرة لابن الزبير ان يختار المهلب بن ابن صفرة لحرب الازارقة . فالمهلب ابن البصرة وبطلها اثناء المحن وفي البصرة قبيلته اليمانية . وقد ارسل عبدالله بن الزبير كتاب تولية المهلب على حرب الازارقة جاء فيه :

« ان الحارث بن عبدالله كتب إلي ان المارقة اصابوا جندا للمسلمين كان عددهم كثيراً واشرافهم كثير . وذكر انهم اقبلوا نحو البصرة . وقد كنت وجهتك الى خراسان وكتبت لك عهداً . وقد رايت حيث ذكر امر هذه الخارجة ان تكون انت تلي امر قتالهم .. »(١٦) .

وهكذا فان خطر الازارقة جعل عبدالله بن الزبير يغير رايه السابق حيث كان قد عين المهلب واليا على خراسان وانتدبه لقتال الازارقة الذين يهددون البصرة . وقد قبل المهلب تلك المسؤولية يدافع الاخلاص للبصرة والعراق ، واندفع في التو بجيش من اهل البصرة بين ١٢ الف و ٢٠ الف على اختلاف الروايات التاريخية ، اغلبهم من الازد ٨ الاف مقاتل .

هاجم المهلب الازارقه في مواقعهم وهزمهم المرة تلو الاخرى حتى احتل سوق الاحواز . لجأ الازارقة الى الارهاب والاغتيال بعد ان فشلوا في المواجهه العسكرية فنصبوا الكمائن لاغتيال بطل البصرة المهلب دون جدوى الا انهم نجحوا في اغتيال شقيقه المعارك وصلبه . الا ان هذا الحدث لم يفت من عزم المهلب حيث تتبع الازارقة وحاصرهم في (سولاف) حيث دارت معركة طاحنة انهزمت في بدايتها عساكر المهلب ولكنه صمد مع فرسانه وابنه المغيرة فلما رات العساكر ثباته عادت الى ارض المعركة واشتد القتال المرير وتواصل وقتل الكثيرون من الجانبين . واشاعت الخوارج ان المهلب قتل فكادت عساكره ان تتراجع لولا سماعهم صوته وهو ينادي « انا المهلب » . فدارت الدائرة على الخوارج الازارقة حيث قتل قائدهم ابن الماحوز وانهزم اتباعه في شوال ٦٦هـ / ٦٨٦م(١٧) .

لم يترك المهلب الازارقة تستجمع انفاسها بل تتبعهم اينما حلوا او ارتحلوا في اصبهان والسوس وارجان وكرمان يسجل عليهم الانتصار تلوا الانتصار . وكانت اخباره تصل البصرة فيستبشر اهلها الفرج وانتهاء الخطر . وقال احد الشعراء مخاطباً الازارقة البغاة :

إن العراق واهله لم يخبروا
مثل المهلب في الحروب فسلموا

وقال شيخ البصرة وفارسها الاحنف بن قيس التميمي معترفا بفضل المهلب « البصرة بصرة المهلب » !!

اعتمد الازارقة اسلوب الارهاب والفساد في الارض بعد فشلهم في سلسلة حروبهم فاخذوا يهاجمون القرى ويسلبونها ويقتلون الرجال والنساء ويبقرون بطون الحوامل من النساء . وبعد ان اجابوا في اقاليم عديدة عادوا بزعامة قائدهم قطري بن الفجاءة الى الاحواز مهددين مرة اخرى البصرة . فاستدعى المهلب ثانية لحربهم فانتقى عساكره من اهل البصرة والتحم بهم في معركة (سولاف الثانية) واستمر القتال ثمانية اشهر متتالية نجح بعدها المهلب ان يطهر الاحواز منهم .

وفي الوقت الذي كان اهل البصرة بقيادة المهلب يواجهون خطر الازارقة في بلاد فارس . ظهر خارجي اخر من فرقه النجدات هو ابن فديك في البحرين . وهكذا وقعت البصرة امام خطرين الازارقة من اقليم فارس والاحواز والنجدات في اقليم البحرين . وقد امر الخليفة عبدالملك بن مروان القائد عمر بن عبيدالله ان يجمع جنده من اهل المصريين البصرة والكوفة ويسير لقتال النجدات . وكانت حرباً ضروساً انتهت بمقتل زعيم الخوارج ابن فديك وعدد كبير من اصحابه سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م .

استطاعت الخلافة بفضل جهود « اهل البصرة » وقادتها المحنكين ان تقضي على حركات الازارقة التي شكلت خطرا مباشرا على ذاتها وحركات النجدات التي هددت البصرة واليمامة واليمن . ولابد لنا ان نشير الى ان المهلب لم يستعمل مع الازارقة خبرته العسكرية وخططه التعبوية فحسب بل انه كان يلجأ ايضا الى الخلاف في صفوفهم من اجل تفجيرهم من الداخل وكان يجيب الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق حين يستعجله في قتالهم : « اني منتظر بهم ثلاث ، موت ذريع ، او جوع مضر ، او اختلاف في اهوائهم »[١٩] . وهذا ما حصل فعلا حيث انقسمت الازارقة على نفسها بسبب خلافات مذهبية وتطور الامر الى خلافات عنصرية حيث انفصل الموالي من العجم الذين كان عددهم حوالي ٨ الاف عن العرب !!

ويبدو ان سبب انتصار بطل اهل البصرة على الازارقة الذين هددوا البصرة وكل العراق يعود الى اعتماده اسلوب النفس الطويل وتجنب العجلة في حربه معهم ، ولهذا لقبه الازارقة (بالساحر) ذلك انهم كانوا يدبرون الامر فيجدونه قد سبق الى نقض تدبيرهم قبل ان ينفذوه . وقد اعترف قطري بن الفجاءة زعيم الازارقة بشجاعة المهلب وقيادته الفذة ... ولاننسى هنا ان نذكر الرجل الذي كان وراء المهلب يشد من ازره ويمده بالرجال والسلاح والميرة ذلك هو والي العراق الحجاج الثقفي . تذكر رواية تاريخية ان الامدادات من المقاتلة التي وصلت المهلب وهو يقاتل الازارقة كانت من الكثرة بحيث استبشر خيرا وقال « اليوم قوتل هذا العدو » . كما وان الحجاج كان يزور المقاتلة من اهل البصرة والكوفة الرابضين على خط النار شرقي البصرة وفي الاحواز ويقول لهم :[٢٠]

« يا اهل المصرين هذا والله مكانكم ؛ شهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة حتى يهلك عدوكم هؤلاء الخوارج المطلين عليكم » !!

لقد استمر خطر الازارقة ماثلا امام اهل البصرة حوالي العشرين عاما يهددهم من جهة بلاد فارس ولكن صمود مقاتلة اهل البصرة ومعهم اهل الكوفة والتضحيات التي قدموها ثم خبرة قادتهم واخلاصهم الحقت الهزيمة بالازارقة « وطهرت الارض منهم والحمد لله » كما يقول البغدادي[٢١] . والواقع ان المهلب نفسه كان يرى بان احد عوامل نصره يعود الى كونه يحارب اهل الباطل باهل الحق والعاقبة للمتقين .

البصرة ومحنة الزط :

تعرضت البصرة ومنطقة البطيحة في جنوبي العراق الى اضطرابات عنيفة قام بها **الزط** . ولا نعرف الشيء الكثير عن هؤلاء القوم . ويروي المسعودي أن اصلهم من الهند هاجروا الى بلاد فارس واقاليم الخليج العربي بسبب الفاقة . ويؤيد ذلك البلاذري ويحدد منطقتهم بالسند . ويبدو ان المدائني حين كان يتكلم عن « اهل الكلاء في منطقة الطفوف » (طفوف البصرة وجنوبي العراق) كان يعني الزط . اما ابن خلدون فيقول بان الزط قوم من اخلاط الناس[٢٢] .

وقد عرف الزط باسماء مختلفة في الاقاليم التي سكنوها . ففي الاقاليم العربية قبل الاسلام وبعده كانوا يعرفون بالزط ولاتزال هذه التسمية موجودة في بعض مناطق الخليج العربية حيث يطلق عليهم باللهجة العامية باسم « الزطوط » . اما من ايران فقد عرفوا باسم (الجت) وكذلك اسم (لوري) . ويذكر الفردوسي في (الشاهنامه) ان بهرام جور ملك الفرس جلب اعدادا كبيرة منهم من الهند . وقد تفرق الزط في العصر الاسلامي في اقاليم كثيرة وعبر بعضهم الى اوربا وعرفوا هناك باسم Gipsies (جيبسي) و Calos كالو وهذه التسمية تذكر باسم (الكاولية) الذي يطلق في العراق وبعض اقاليم الخليج العربي على الغجر والنور) وكلها تسميات تطلق على جماعات من الزط[٢٣] .

ومهما يكن من امر فقد اختلط الزط بالزنج وفئات اخرى في البصرة وضواحيها كما شاركوا الزنج في الاضطرابات التي قاموا بها في البصرة على عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وقد قمعت حركتهم بسهولة في تلك الفترة . ونقلهم الحجاج الثقفي الى اسافل كسكر باهليهم واولادهم وجواميسهم وحدد سكناهم فتغلبوا على البطيحة وتناسلوا فيها وكثروا .

انتهز الزط ضعف السلطة العباسية المركزية بسبب الحرب الاهلية بين الامين والمامون فهددوا البصرة واستولوا على طرقها ونهبوا السفن وحالوا دون سيرها من البصرة الى بغداد . وتقدموا نحو البصرة فعاثوا فسادا في قراها واحرقوا مزارعها ونهبوا الاموال والقوافل .

لقد قاوم « اهل البصرة » المتمرسين على القتال المخلصين لتربة وطنهم هذه العناصر الزطية ولكن الزط كانوا يحتمون عندما يحدق بهم الخطر بحلفائهم من عرب بني حنظلة لانهم بعد اسلامهم دخلوا كموالي لبني حنظلة . ولكن المامون بعد ان استتب له الامر ارسل جيشا الى البصرة والبحرين للقضاء على الزط ووضع حد للاضطرابات التي احدثوها . ولكن يبدو ان الجيش العباسي لم يحقق نصراً ساحقاً عليهم ، ودليلنا على ذلك ما قاله نصر العقيلي الذي ثار على المامون في الجزيرة الفراتية حين هدده الخليفة :(٢٤) « ويلي عليه هو لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه — يعني الزط ويقوى على حلبة العرب » ؟! .

ولكن الخليفة المعتصم بمقدرته العسكرية وتنسيقه مع اهل البصرة من المقاتلة العرب وبخبراته الواسعة استطاع ان يقضي على هذه الاضطرابات سنة ٢١٩هـ / ٨٣٥م . وقد استخدم المعتصم وقائده عجيف بن عنبسة اساليب جديدة في القتال مناسبة لمنطقه الاهوار المستنقعات في ضواحي البصرة ومنطقة البطيحة عموما . كما وان المعتصم استخدم فرقة من المصريين من سكان الدلتا التي تشبه بطبيعتها المائية والزراعية منطقة البصرة واهوارها . وتشير رواية تاريخية ان هؤلاء المصريين كانوا « يسبحون في هذه المستنقعات مثل السمك دون ان يراهم احد ويهاجمون الزط فجاة بالحراب التي تقتلهم »(٢٥) .

ويفضل صبر اهل البصرة وتعاون مقاتليهم مع الجيش العباسي النظامي استسلم زعيم الزط محمد بن عثمان وصاحب حربة (سملق) وبقية اتباعه الذين بلغوا حوالي ٢٧ الف

وقد امر المعتصم بابعادهم عن البصرة والبطيحة الى الثغور البيزنطية حيث اسكنهم هناك وشجعهم على الاستقرار والزراعة وتربية الماشية والجاموس . ويقال ان الجاموس ظهر لاول مرة في تلك الاصقاع الجزرية والشامية عن طريق هؤلاء الزط !!

وهكذا تخلص اهل البصرة من محنة الزط وما سببته من اضطرابات وقلاقل هددت امنهم واستقرارهم وتجارتهم وزراعتهم مدة تقارب الـ ١٥ سنة من ٢٠٥هـ — ٢٢٠هـ .

البصرة ومحنة الزنج :

لعل اعظم محنة تعرضت لها البصرة واهلها هي محنة الزنج(٢٦) التي دامت — بسبب ضعف السلطة المركزية العباسية — اكثر من عقد ونصف تقريبا واحالت البصرة وقراها الى خراب وتشرد اهلها وبيع اطفالها ونساؤها كالرقيق في الاسواق . ولكن مجالدة « اهل البصرة » وصبرهم ومصابرتهم ومرابطتهم وتناسيهم خلافاتهم امام الخطر المحدق وهذا هو ديدنهم دوما كما لاحظناه واشرنا اليه في مواقفهم السابقة ضد الازارقة والزط — كان عاملا حاسما في تحقيق النصر على صاحب الزنج وزمرته .

والزنج جماعات من العبيد السود استقدموا الى العراق بسبب الحاجة الى الايدي العاملة في الزراعة واستصلاح الاراضي والملاحة وبعض الحرف. ويعود اصلهم الى شرق افريقيا حيث مناطق استيطانهم الاصلية . وفي مناطق الخليج انتظموا على شكل مجموعات تشبه القبائل حيث يشير الجاحظ الى اربع من قبائلهم هي نمل وكلاب ولنجويه وقنبلة . ومن المحتمل انهم تواجدوا في هذه الاراضي في عصور اقدم من العصر العباسي وربما قبل الاسلام الا ان عددهم ازداد في العصر العباسي بسبب الازدهار الاقتصادي والرفاه الاجتماعي .

وقد استغل هؤلاء الزنج بسبب وضعهم الاقتصادي السيء وظروف عملهم القاسية من قبل بعض المغامرين والطموحين ضد الخلافة الاموية ثم العباسية فقد اثاروا الاضطرابات في البصرة وحواليها في عهد مصعب بن الزبير على العراق . فنهبوا المحاصيل وعاثوا فسادا في القرى المحيطة بالبصرة . ثم اعاد الزنج الكرة ثانية في عهد الحجاج الثقفي . وكان الحجاج مشغولا فاعتمد على مقاتلي اهل البصرة للقضاء علم الحركة وتاديب « عبيدهم وكساحيهم » .

ولكن اهمال الحركة ادى الى اتساعها حيث انضوت عناصر اخرى مثل الزط والموالى الفرس تحت لواء زعيمهم الملقب (شيرزنجي) وهو لقب فارسي يعني (اسد الزنج) مما يدل على احتمال

كونه فارسيا مغامراً . لقد وسع شيرزنجي منطقة نفوذه لتشمل الفرات والابلة وهاجم البصرة عدة مرات وسمى نفسه امير المؤمنين .

لقد شعر اهل البصرة بالخطر الذي يهددهم فانضم رجال من كل خمس من اخماس البصرة الى المقاتلة الاخريين كمتطوعة . وبعد قتال عنيف وقعت المعركة الفاصلة في صحراء الدورق حيث قتل شيرزنجي وعدد كبير من اتباعه .

ثم اضطراب الزنج مرة ثالثة في البصرة وضواحيها في سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م في عهد المنصور العباسي فنهبوا القرى وقتلوا بعض اهلها ولكن قوة الدولة لم تترك مجالا لانتشار الحركة .

الا ان الحركة الوحيدة التي قام بها الزنج والتي حظيت باهتمام مؤرخينا الرواد امثال الطبري وابن الاثير هي تلك التي حدثت سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م في العصر العباسي الثاني حيث كانت السلطة ضعيفة يسيطر عليها القادة الترك مما ادى الى استمرار الحركة مدة تزيد على الخمس عشرة سنة وكانت اثارها التخريبية والارهابية جدا على اهل البصرة خصوصا واهل البطيحة عموما .

قاد حركة الزنج الاخيرة (صاحب الزنج) المدعو علي بن محمد الذي لا نعرف عنه شيئا يذكر سوى انه غير من نسبه تبعا للظروف السياسية . الا ان الالقاب الذي نعته بها المعاصرون له مثل (الفاسق) (والخبيث) تدل على اساليبه الارهابية ونزعته الميكيافيلية وطموحه الذي لايحد ، اضافة الى ادراك نافذ الطبيعة العصر والظروف التي تمر بها الخلافة واستغلال كل ذلك للوصول الى الزعامة .

ومن الطبيعي انه لو كانت السلطة العباسية حينذاك قوية لما قدر لحركة صاحب الزنج ان يكون لها ذلك النفس الطويل في المقارعة والمجابهة والامعان في ارهاب اهل البصرة وضواحيها وتخريب القرى والمزارع وتهديد طرق التجارة البرية والنهرية في جنوبي العراق ، ولكان مصيرها مصير اخواتها قبلها . ثم ان استمرار الحركة لايعني قوتها الذاتية وعظم نفوذها وحصولها على التأييد الواسع بقدر مايعني سكوت السلطة العباسية الضعيفة عليها واستغلالها طبيعة المنطقة المغمورة بالمياه في المراوغة والخداع .

وقد حاول صاحب الزنج في البداية عن طريق جواسيسه من الرتل الخامس ان يجد منفذا لكسب احدى الفئتين من اهل البصرة البلاليه او السعدية ، ولكن اهل البصرة ادركوا خطره فاتحدوا لمواجهته ولذلك لم يفكر صاحب الزنج في احتلال البصرة المدينة العربية الكبيرة احتلالا دائميا لانه كان يدرك بان الفشل سيكون حليفه ولهذا استخدم اسلوب المباغته والسلب والنهب ثم الانسحاب نحو البطيحة وراء القنوات وقصب البردي . وكانت غاراته على البصرة مدمرة ارهابية تستهدف الفزع والتخويف والحصول على المؤن والذخيرة .

وليس يهمنا في هذا البحث ان نستطرد في تبيان طبيعة الحركة ومراحل تطورها ولكننا سنركز على آثارها التخريبيةعلىالبصرة وضواحيهاوصمود « اهل البصرة » العرب تجاهها . ذلك ان المؤرخين الرواد يتفقون على القول بان صاحب الزنج واتباعه وضعوا السيف في رقاب « اهل البصرة » واسروا نساءهم وسبوا اطفالهم . وفي رواية تاريخية ان الزنج هاجموا البصرة يوم الجمعة واثناء الصلاة وقتلوا الاف المصليين في المساجد ثم هاجموا الدور فسبوا النساء وقد حصل كل زنجي على عشر ارقاء وتكررت هذه العملية عدة مرات ... ولذلك حين انقلب الامر على صاحب الزنج كان من ابرز الاعمال قام بها الامير العباسي قائد الجيش العباسي هو استنقاذ الاسرى من نساء وصبيان البصرة وغيرها . وفي رواية للصفدي .

« ثم انه [اي صاحب الزنج] دخل البصرة سنة ٢٥٧هـ وقت صلاة الجمعة فقتل واحرق الى يوم السبت . ثم عاد يوم الاثنين ونادى اهل البصرة بالامان فامنهم ولما ظهر الناس قتلهم فلم يسلم الا الشاذ. واحرق الجامع ومن فيه . وعم الحريق الناس والدواب والمتاع وغير ذلك . واستخرج الاموال من اربابها وقتل الفقراء » .

وفي رواية :

واضرموا [اي الزنج] في الابلة النار فاحترقت باجمعها وقتل خلقا كثيرا وغرق خلق كثير وحوى الاسلاب » .

وقال الطبري يروي مجزرة البصرة قال الحسن بن عثمان امرني يحيى في تلك الغداة بالمسير الى مقبرة بني يشكر .. ، وهناك في المقبرة وجد الناس يقتلون من قبل الزنج « فاني لاسمع تشهدهم وضجيجهم وهم يقتلون » !!

وفي يوم الثلاثاء وهو يوم لن ينساه اهل البصرة وقد خلده شعراؤهم وانكروا فيه البربرية والارهاب التي ابداها صاحب الزنج في معاملته لاهل البصرة . فبعد ان قتل الناس :

« جمع رؤوس القتلى وملأ بها سفنا واخرجها من النهر المعروف بام حبيب واطلقها فوافت البصرة فوقفت في مشرعة القيار فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس فياخذ كل رجل اولياؤه » .

وكان صندل احد اتباع صاحب الزنج مسؤولا عن الاسيرات من النساء المربيات البصريات فكان « يكشف وجوههن ورؤوسهن ويقلبهن تقليب الاماء » .

لقد عاث الزنج وصاحبهم فسادا بالقرى البصرية وخربوا قنوات المياه واتلفوا محاصيل البساتين . ففي رواية تاريخية ان الزنج هجموا على قرية (الجعفرية) في البصرة وقتلوا غالبية اهلها ثم نهبوها ثم هجموا على قرية (القادسية). ثم قطعوا الطرق ونهبوا سفن الميرة وما فيها من طعام وبضاعة . فهجر العديد من سكان القرى البصرية قراهم لقلة الغذاء والفزع من الارهاب والموت المحقق .

ويتفق العديد من المؤرخين بان عدد الضحايا خلال الخمس عشرة سنة ربما تجاوز المليون وان نصيب البصرة وحدها بلغ حوالي ربع مليون !! وتشير روايات تاريخية اخرى الى ان كثيرا من الناس اختفوا في الابار هربا من الموت . ومما يدل على الهلع الذي اصاب الناس انهم حين سمعوا بالقاء السلطة العباسية القبض على بعض رؤوس الحركة « استبشروا وكثر التكبير والضجيج وايقنوا بالفتح » !!

ان هذه الامثلة تكفي كنماذج لما اقترفه الزنج من مجازر رهيبة ولكن صمود أهل البصرة من بلاليه وسعدية ووحدتهم تجاه الخطر ومساندتهم لجهود الدولة العباسية ادى الى انتهاء المحنة . فقد تغير الموقف العسكري بعد تسلم الموفق العباسي القيادة وابتداعه اساليب حربية جديدة تصلح لمعارك الاهوار والمستنقعات وهمته العالية وحنكته السياسية ادت الى انهيار الحركة وتخاذل انصارها حيث تم قمعها سنة ٢٧٠هـ .

ولابد لنا ان نشير هنا الى قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة بعد اكتساحها من قبل الزنج ومديحه لاهلها الذين تفانوا في دفع الخطر وضحوا بانفسهم في سبيل تربة الوطن :

اما مطلع القصيدة :(٢٧)

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام

اي نوم بعدما حلّ بالبصـ(م)
ـرة ما حلّ من هنات عظام

اي نوم من بعد ما انتهك
الزنج جهاراً محارم الاسلام

ان هذا من الامور لامر
كان ان لا يقوم في الاوهام

اقدم الخائن اللعين عليها
وعلى الله ايما اقدام

وتسمى بغير حق إماماً
لا هدى سعيه من امام

يسهب العديد من المؤرخين المحدثين في وصف الخراب الذي حل في البصرة بسبب محنة الزنج مثل خراب المربد واندراسه وهدم المسجد الجامع والعديد من المساجد ، ولكن البصرة ما فتئت حتى استرجعت حيويتها ونشاطها وعمارتها مما يدل على طبيعة اهلها المجبولة على حب مدينتهم والعمل على ازدهارها مع اول فرصته تتاح لهم .

البصرة ومحنة القرامطة :

الحركة القرمطية جزء من الحركة الاسماعيلية العامة. وقد تعددت اراء المؤرخين في تفسير اصطلاح « قرامطة » ويغلب على الظن ان قرمط لقباً لحمدان بن الاشعث زعيم قرامطة جنوبي العراق ومعناها في اصلها النبطي احمر العينين (٢٨) .

لقد تزامنت هذه الحركة مع حركة الزنج في جنوبي العراق وشاركتها في رفع شعارات براقه تجذب المستضعفين من الناس .. ولكن هذه الشعارات العقائدية والاجتماعية لم تكن الا مظاهر واساليب للوصول الى الاهداف السياسية . كما اشتركت الحركتان في اتخاذ اسلوب العنف والارهاب وسيلة لتحقيق الاغراض الا ان الحركة القرمطية ـ ومن حسن الطالع ـ لم تبدأ بالتسلح واتباع الارهاب الا بعد سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م اي بعد القضاء على حركة الزنج . ولو قدر لكلتا الحركتين ان تتفقا ـ

وهذا ما عمل له صاحب الزنج ـ لتضاعف الخطر على البصرة وعلى الخلافة العباسية كذلك .

لقد تحرك القرامطة مرات عديدة في جنوبي العراق واقاليم الخليج العربي في عهود المعتضد والمكتفي والمقتدر وهاجموا القرى وقوافل الحجيج. واستطاع ابو سعيد الجنابي ان يؤسس دولة للقرامطة في البحرين .

لقد ادركت الخلافة العباسية خطر القرامطة الذين قطعوا المواصلات بين العراق والبحرين وهددوا طرق التجارة البرية بين البصرة والحجاز والشام . وقد حصن المعتضد البصرة وعزز امكاناتها العسكرية. الا ان الجيش العباسي خسر المعركة مع القرامطة ومع ذلك صمم الخليفة على الاستمرار في مجابهة القرامطة الاستفحال خطرهم في كل الخليج العربي . وفي رواية تاريخية انه قال :

« والله لئن طال بي العمر لاشخصن بنفسي الى البصرة وجميع غلماني [المرتزقه في الجيش] ولاجهزن اليه [ابي سعيد الجنابي القرمطي] جيشا كثيفا فان هزمهم خرجت في جميع قوادي وجيشي اليه حتى يحكم الله بيني وبينه » .

وقد تنبأ هذا الخليفة العباسي القدير قبيل وفاته ان قلاقل واضطرابات ستاتي من ناحية الخليج العربي ففي رواية يذكر قواده بانه صمم على تاديب البغاة القرامطة وتحقيق الاستقرار في البصرة وبقية ارجاء الخليج قائلا : « ... واني اخاف ان يكون من هناك حوادث عظيمة » !!

لقد هاجم قرامطة البحرين البصرة سنة ٢٨٦هـ فلما ورد الخبر استعد اهل البصرة بقيادة الوالي احمد بن محمد وامره الخليفة ان يسور البصرة بسور حصين ففعل وصرف عليه ١٤الف دينار .

ثم هاجم ابو سعيد الجنابي القرمطي البصرة ثانية سنة ٢٨٧هـ فاشتبك معه « اهل البصرة » وقتلوا من اصحابه ٣٠٠ رجل وانسحب ولم يتمكن من المدينة .

ثم داهم القرامطة البصرة سنة ٢٨٩هـ وحاصروها ١٨ يوما ولكنهم عادوا ادراجهم خائبين بسبب استبسال اهل البصرة في الدفاع عن مدينتهم .

وفي سنة ٢٩٩هـ فاجا القرامطة اهل البصرة اثناء صلاة الجمعة فقتلوا منهم ولكن مقاتلة اهل البصرة سرعان ما تجمعوا وحاربوا القرامطة وطردوهم عن بلدتهم .

وفي سنة ٣٠١هـ استغل القرامطة ضعف الخلافة العباسية ايام المقتدر فهاجم ابوطاهر سليمان بن سعيد الجنابي القرمطي البصرة ليلا والحق الهزيمة بالقائد العباسي يوسف بن ابي الساج . ثم تقدم القرامطة نحو بغداد ولكن القائد مؤنس الخادم لجا الى الخداع فارسل قوارب محملة بالتفاح المسموم فاعتقد القرامطة انها من ميرة جند الخلافة فاكلوها مما سبب وفاة كثير منهم فارتدوا عن بغداد قبل الوصول اليها !! ولكنهم عاثوا فسادا في قرى السواد يسفكون الدماء ويسبون النساء ويسلبون الاموال . وباتت طرق التجارة غير مامونة ولذلك لم يحج سنة ٣١٣هـ احد من اهل البصرة .

وفي سنة ٣٣٢هـ هاجم امير عمان المتحالف مع القرامطة في البحرين البصرة والابله ولكن اهل البصرة بقيادة واليهم البريدي هاجموا سفنه الراسية على الساحل ليلا فاحرقوها جميعا واخذوا ما فيها من معدات عسكرية واموال وانهزم عسكر امير عمان(٢٩) .

ان ضعف السلطة العباسية شجع ابو طاهر سليمان القرمطي على محاولة فرض شروط قسرية عليها فقد اشترط مقابل ايقاف الهجمات المدمرة على البصرة والاحواز ومدن العراق الاخرى تخلي العباسيين عن البصرة والاحواز والاعتراف بنفوذ القرامطة عليهما !! ولم يكن امام العباسيين الا الرفض القاطع تجاه هذه الشروط المجحفة . فكانت اجابة القرامطة استمرار الهجمات الارهابية ضد القوافل والمدن العراقية وخاصة البصرة والكوفة . ولم تهدا هجمات القرامطة الا بعد ان فرضوا اتاوة على الخلافة العباسية الضعيفة التي كان يتحكم فيها القادة العسكريون الاتراك . ثم عزز القرامطة نفوذهم فيما بعد حين خضعت الخلافة العباسية الى سيطرة البويهيين الفرس الذين عقدوا اتفاقات مع القرامطة تم بموجبها اقتسام مكوس التجارة البرية والبحرية بين الطرفين الفرس البويهيين والقرامطة !!

استمر التحالف القرمطي ـ البويهي ضد الخلافة العباسية وحقق كل منهما مكاسب اقتصادية وسياسية منه على حساب الخلافة في بغداد وعلى حساب ازدهار البصرة ونموها . ذلك لان البصرة واهلها كانوا يجنون ارباحا كبيرة من التجارة ومكوسها التي باتت تذهب الى جيوب الاجانب المعتدين . الا ان هذا التحالف لم يستمر طويلا فقد انشقت الحركة القرمطية كما اختلف

الامراء البويهيين مع بعضهم وتدخل القرامطة في النزاعات الداخلية البويهية ... كل ذلك ادى الى انحلال الحركة القرمطية ونهايتها في اواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كقوة سياسية ذات شأن .

لم يستطع القرامطة تحقيق اهدافهم السياسية والعسكرية كاملة رغم ضعف السلطة العباسية وذلك بسبب صمود اهل البصرة في مواجهتهم وبسبب ما ابدوه من تضحية وبطولة فذة امام هجمات القرامطة فوتت العديد من الفرص عليهم وافشلت مخططاتهم . لقد كان هدف اهل البصرة الحفاظ على مدينتهم من الانهيار والخراب ولذلك استغلوا وبحكمة الظروف السياسية وصراع المتنفذين والقادة الطموحين على السلطة سواء كان في بغداد او في الاقاليم المحيطة بهم من اجل تحقيق هذا الهدف. ففي سنة ٣١٦هـ تعاونوا مع امير الامراء ابن رائق لدفع القرامطة عن البصرة ونجحوا في ذلك . وفي سنة ٣٢٦هـ وبسبب ضعف السلطة العباسية تعاونوا مع حاكم الاحواز البريدي لطرد واليهم الظالم محمد بن يزداد ونجحوا في مسعاهم هذا . وحين تعسف الحاكم الجديد في جمع الضرائب من اهل البصرة تعاون « اهل البصرة » مع امير الامراء في بغداد (بجكم) للتخلص من البريدي(٣٠) .

البصرة ومحنة التسلط الاجنبي :

شهدت البصرة بل كل العراق محنة التسلط الاجنبي خلال العصور العباسية المتاخرة . والواقع ان البصرة لم تستسلم لمعز الدولة البويهي الا بعد ان سمعت بوصول الخليفة الطائع لله العباسي في معية معز الدولة سنة ٣٣٦هـ . يقول ابن الغملاس مؤرخ البصرة :

> « ... وسمعت العساكر بمجيء الخليفة فاجتمع امراؤهم جميعا فوضعوا الطاعة على الخليفة والانقياد لاوامره وكفى الله المؤمنين القتال »(٣١) .

ولم يرضى اهل البصرة الا بوالٍ عربي من ال المهلب ابن البصرة البار وبطلها حين تولاها سنة ٣٣٧هـ محمد بن الحسن بن محمد المهلبي « وقد وفقه الله لاصلاح مافسد منها فشكر الناس مساعيه » .

وقد حاول حاكم عمان يوسف بن وجيه ان يغزو البصرة ثانية بالاتفاق مع القرامطة في البحرين ٣٤١هـ ويبدو انه اطمعهم بالبصرة وطلب منهم ان ينجدوه بجيش بري بينما يهاجم هو البصرة باسطول بحري وقد حاصروا البصرة نحو شهر ؛ ولكن اهل البصرة بقيادة ابن المهلبي صمدوا وابدوا من البطولة ماجعل ابن وجيه ينسحب خاسرا باتجاه البحرين بعد أن غرقت كافة سفن اسطوله .

على ان قبضة هؤلاء الاجانب المتسلطين من بويهيين او سلاجقة لم تكن قوية على البصرة . فقد ثار في الفترة البويهية عمران بن شاهين السلمي في البطيحة وقطع المواصلات والاتصالات والتجارة بين بغداد والبصرة لمدة دامت حوالي عشرين سنة تقريبا . كما ان البصرة استغلت النزاعات بين الامراء البويهيين لتاكيد استقلالها مرة بعد اخرى (٣٢) .

وقد ثارت قبائل البصرة والبطيحة على النفوذ السلجوقي سنة ٤٤٧هـ واستعمل السلاجقة القوة لاعادة نفوذهم هناك ... الا ان البصرة تعرضت للعديد من الهجمات البدوية من الخليج وغربي العراق وكذلك عاجم المزيديون حكام الحلة مرتين البصرة . الاولى بالتعاون مع السلاجقة سنة ٤٩٩هـ والثانية سنة ٥١٧هـ بالاتفاق مع بعض عشائر غربي الفرات وكان القصد الحاجة الى المال والمؤونة المتواجدة في المدن الكبيرة مثل البصرة(٣٣).

ورغم ان البصرة كانت بين حين واخر تعود الى قبضة الخلافة العباسية المركزية خاصة في عهود الخلفاء المتاخرين الذين حاولوا اعادة هيبة الدولة وسيطرتها مثل المسترشد بالله والمقتفي لامر الله والناصر لدين الله الذي قضى على النفوذ السلجوقي في العراق سنة ٥٩٠ هـ . ولكن ايام البصرة المزدهرة في ظل الخلفاء العباسيين الاوائل لم تعد الى ماكانت عليه . وقد انقضى تاريخ (البصرة القديمة) المزدهر بانقضاء العصر العباسي على يد المغول سنة ٦٥٦هـ / سنة ١٢٥٨م .

البصرة ومحنة الشعوبية :

اذا كان ما حاولنا ابرازه خلال الصفحات السابقة هو استجلاء نماذج تعبر عن روح البطولة والصمود التي تمتع بها « اهل البصرة » عبر تاريخها السياسي في العصور الاسلامية ... فان اسم البصريين يقترن ؛ من جهة اخرى بالقلم الذي سخروه في الدفاع عن قيم العروبة ومثل الاسلام ضد دعاوى الشعوبية الحاقدة واباطيل الزندقة المشككة(٣٤) .

وهكذا فان روح الصمود عند « اهل البصرة » تمثلت في امتلاكهم ناصية الاسمرين الرمح والقلم

فاثبتوا ان لهذين الاسمرين فوهة واحـدة وهدفا واحدا حين يكون مصير الارض والامة في خطر !!

والمعروف ان الشعوبية حركة فكرية اجتماعية قامت بها جماعات غير عربية بهدف ضرب الكيان العربي من خلال فكره وثقافته وارثه الحضاري عن طريق التقليل من شان العرب والتشكيك بدورهم الحضاري والسياسي والاستهزاء بلغتهم ونسبهم وقيمهم ومثلهم مقابل الاعتزاز بالارث الحضـاري الاعجمي والتمجيد بالقيم والسجايا غـير العربية واحياء الثقافة الاعجمية وصولا الى استبدال النظم والتراث في المجتمع من عربية اسلامية الى فارسية اعجميـة .

وقد نشطت الشعوبية في العراق خلال العصر العباسي نشـاطا ملحوظا باعتباره الحـد الشرقي للوطن العربي . وقد عرف عرب العراق في الحركة الشعوبية الهدامه قمة التحدي الفكري والثقافي... فكانت اخطر داء كاد ان يعصـف بالحياة الفكرية العربية ويشوه معالمها الانسانية البناءة .

لقد شهد مربد البصرة ومساجدها ومدارسها وحلقات تدريسها العديد من رموز الصمود الفكري من علماء اللغة والفقه والتاريخ والادب والتفسير والعلوم الصرفة وغيرها . ويمكن القول بان الكثير مما كتب في التراث الادبي واللغوي والتاريخي وفي علوم القرآن كان بطريقة او باخرى ردا على دعاوى الشعوبية التشكيكية . فقد برزت فلسفة جديدة تؤكد على وحدة التاريخ الثقافي العربي بحيث بات كل عصر متمـما للاخر كما هو واضـح في كتاب (البيان والتبيين) للناقد والمفكر البصري اللامع الجاحظ . وظهرت كتب تؤكد وحدة التاريـخ السياسي العربي ودور العرب وملوكهم في التاريخ وبرز في هذا المجال من البصريين ابي عبيدة وابي سعيد عبد الملك الاصمعي . وكتب المبرد البصري (الكامل) في الادب ... وكتب ابن دريد (الجمهرة) وكذلك اسماء القبائل واوضح علماء المعتزلة والاباضية في البصرة صورة الاسلام الصحيح ودافعوا عنـه باساليب جديـدة ضد دعاوى الزنادقـة المانوية والباطنية الغلاة . وكان الحسن بن الهيثم البصري علامة مضيئة في تاريخ العلوم عند العرب وما قدموه من اضافات جديدة واصيلة ساهمت في تطـور الحضارة الانسـانية .

ولسنا هنا في صدد جرد اسهامات اهـل البصرة على الصعيد الفكري والثقافي وما انتجوه من فكر مبدع دحـض ادعاءات الشعوبية التـي تزعـم :

« ان لكل الامم من الاعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الادوات والصناعات ، ولـم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لهم قط نتيجة من صناعة ولا اثر في فلسفة »!!

ويكفي ان نشير هنا الى ان الخليل بن احمد الفراهيدي صاحب كتاب العين في علم اللغة والعروض وسيبويه وابن دريد وابو الاسود الدؤلي النحوي البصري وواصل بن عطاء والحسـن البصري وعمرو بن عبيد والماوردي واخيرا لا اخرا الجاحظ الذي قال عنه احد المؤرخين المحدثين :

«وغمر الجاحظ بما كتبه من سمة افق وقوة عارضـة ما كانت تصدره مدرسـة الكتاب (الشعوبيين) من سقط المتاع في الادب ... وكان اد بالجاحظ موضـع اقبال شديد من الجمهور ومن المشايعين للشعوبيين كذلك . وصمد الشعوبيون عقد او عقدين ولكنهم اضطروا في النهاية الى الاعتراف بان العلوم العربية الانسانية قد انتصرت ... » .

هكذا تصدى أهل البصرة وبجداره للتحدي الفكري كما تصدوا للتحدي السياسي والعسكري..

الخاتمـة :

اذا كان هدف الصناعة التاريخية في عصرنا الحاضر هو استخلاص القيم والمبادىء الرمزيـة الفاعلة والدائمة في تاريخ الامة ... فان تاريـخ البصرة ومواقف أهل البصرة عبر فترات التاريخ العصيبة وفي حالتي النهوض والانكسار يمدنا بالكثير من العطـاء الثر ..

ويبدو لنا بأن ما استعرضناه من احداث ومواقف اتضح فيها الـولاء للامة وظهرت فيهـا معاني التضحية من اجل الـوطن وامتحنت فيها عزائم الرجال ومعدنهم العربي الاسلامي الاصيل يكفي للدلالة على ما في ارض البصرة الطيبة مـن قدرة وافتدار وتضحية وفداء تجعلنا نحن الجيل الحاضر نطمئن على مستقبل الاجيال القادمة في هذه الارض الطيبة والعريقـة باهلها وتراثها ... ارض العـراق .

ان القيادة الملهمة ورموز التضحية والفداء والصمود في مجالات السيف والقلم في تاريخنـا المعاصر ليسوا الا نتيجة منطقية وتواصل طبيعي يرتبط بابطال التضحية من أهل البصرة الفيحاء وغيرها من مدن العراق في العصور الاسلامية .

التعليقات والهوامش

١ ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٤١ .

٢ ـ المصدر السابق ، ٢٧١ .

٣ ـ راجع : ويليام مارسيه ، الاسلام والحياة الحضريـــة (بالفرنسية) ص٦١ .

٤ ـ الطبري ، ج٣ ، ص (٥٩ ـ الاصطخري) ص ٢٧ . ـ ابن حوقل ص ١٥٨ ـ ابن خرداذبه ص ٦١ .

٥ ـ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (تميم) .

٦ ـ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج١ ص٢٠٥ .

٧ ـ البلاذري ، فتوح ، ص٢٧٨ ، ٣٠٨ ، ٣٧٠ .

٨ ـ راجع : فاروق عمر ، الخليج العربي في العصور الاسلامية دار العلم ، دبي ، الامارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣

٩ ـ محمد النجار ، الدولة الاموية في الشرق ، دار الاعتصام ١٩٧٧، ص١٨٢ .

١٠ـ الطبري جـ٥ ص٢٤ ٢.

١١ـ بحشل ، تاريخ واسط ، ص٤٣ .

١٢ـ راجع : ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، طبعة ١٣٤٣هـ عن المدائني : « عمل العراق من هيت الى الصين والسند والري وخراسان وطبرستان الى الديلم والجبال ... وانما قالوا ذلك لان هذا كله كان من ايام بني اميه يليه والي العراق ..» ج٢ ص٢١٤ .

١٣ـ شارل بلات ، الجاحظ ، ص٦٤ .

١٤ـ ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ليدن ، ص ١٩٠ .

١٥ـ الطبري ، ج٧ ص٥١٨ .ـ المبرد ، الكامل ج٣ ص١٠٢١.

١٦ـ الطبري ، ج٧ص٥٨٢ ـ ٥٨٤ .

١٧ ـ المصنف المجهول ، التاريخ ، ص١٠٥ ـ المبرد الكامل ج٣ ص١٠٤٧ .

١٨ـ نفس المصدر ج٣ ص١٠٦١ .

١٩ـ نفس المصدر ج٣ ص١١٢٨ .

٢٠ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج٤ ص٣٨١ .

٢١ـ البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٧٦ .

٢٢ـ المسعودي مروج ،ج٤ ص٣٠٧ . البلاذري ، انساب ، ج١١ ص٣٠٤ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٤ص٢١٥ .

٢٣ـ راجع : دائرة المعارف الاسلامية مادة : الزط .

٢٤ـ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل الجزء الثالث ، ص٣٤ ـ ٣٩ .

٢٥ـ ميخائيل السرياني ، التاريخ ، ترجمة شابـو ، ص ١٠٨

٢٦ـ حول تفاصيل هذه الحركة ومصادرها التاريخية راجع كتابنا التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين طبع بغداد ١٩٨٥ الطبعة الثانية .

٢٧ـ ديوان ابن الرومي . ـ كذلك ابن الفقاس ، ولاة البصرة ص٢٤ ـ ٢٦ .

٢٨ـ عن انقراضة راجع : فاروق عمر ،الخلافة العباسية في عصر القوضى ، ص١٦١ فما بعد ـ ابن الفقاس ص٣٣ فما بعد ـ علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ البصرة ، ص٧٩ فما بعد . ـ سليمان فيضي البصرة الاعظمي ص ٢٢ فما بعد .

٢٩ـ فاروق عمر ، الخليج العربي في العصور الاسلامية ، دبي ١٩٨٣ ، ص٢٩١ . ـ علي الاعظمي مختصر تاريـــخ البصرة ، ص٥ ٨.

٣٠ـ حول هذه الاحداث راجع ابن الفقاس ص٣٦ ـ ٣٧ . ـ علي الاعظمي ، ص٣٨ ـ ٨٦ .

٣١ـ ابن الفقاس ، ص٣٨ .

٣٢ـ عن حركة عمران شاهين في البطيحة ضد التسلط البويهي راجع مقالنا : المقاومة العربية للبويهيين ، افاق عربية ١٩٨٤ .

٣٣ـ راجع ابن الفقاس ، ص٣٨ ـ ٥١ ـ سليمان فيضي ، البصرة العظمى ، ص١٨ ـ ١٩ . علي الاعظمي ص٨٦ ـ ١١١.

٣٤ـ حول الشعوبية والزندقة راجع مقالتنا في(التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين) ، بغداد ، ١٩٨٥ طبعة ثانية جديدة ومنقحة .

مختارات من المصادر والمراجع

١ ـ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٩٠٦ .

٢ ـ الجاحـــظ ،

البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ٣ اجـزاء

التبصر بالتجارة ، دمشق ، ١٩٣٢ .

الحيوان القاهرة ١٣٢٣ ، سبعة اجزاء .

٣ ـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ليدن ١٨٥١ فما بعد ، ١٥ جزء .

٤ ـ الاصمعي ، كتاب النخل والكرم بيروت ١٩٠٢ ـ الاصمعيات برلين ١٩٠٢ .

٥ ـ ابن رؤبة ، الديوان برلين ١٩٠٣م .

٦ ـ ابو نؤاس الديوان القاهرة ١٣٢٢هـ .

٧ ـ ابو هلال العسكري الصناعتين ، القاهرة ١٣٢٠هـ .

٨ ـ ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، القاهرة ١٣٢٩هـ

٩ ـ ابن القفع رسالة في الصحابة(ضمن رسائل البلغاء)القاهرة
الادب الصغير (ضمن رسائل البلغاء) القاهرة١٩١٢
كتاب الادب (ضمن رسائل البلغاء)
١٠ـ المبرد الكامل في الادب القاهرة ١٣٢٤ .
١١ـ الفراهيدي الجامع الصحيح ١٣٢٦ .
١٢ـ السندوبي رسائل الجاحظ القاهرة ١٩٣٢
١٣ـ محمد كرد علي ، رسائل البلغاء القاهرة ١٩١٢
١٤ ـ سليمان فياض ، البصرة العظمى البصرة ١٩٤٦
١٥ـ علي ظريف ، مختصر تاريخ البصرة بغداد ١٩٢٧ .
١٦ـ ابن الصلاس ولاة البصرة ومتسلموها ١٤هـ ـ ١٣٣٣هـ
البصرة ١٩٦٢ .
١٧ـ عبدالقادر باشا اعيان العباسي ، البصرة في ادوارهـا التاريخية ، بغداد ، ١٩٦١ .
١٨ـ محمد عبدالفتاح عليان ، مراعاة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، القاهرة ١٩٧٠ .
١٩ـ نايف محمد معروف الخوارج ، بيروت ١٩٧٧ .
٢٠ـ فاروق عمر الخليج العربي في العصور الاسلامية ، دار العلم ، دبي الامارات العربية المتحدة . ١٩٨٢ التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ، طبعة ثانية مزيدة، بغداد ، مكتبة النهضة ١٩٨٥ .
٢١ـ شارل بلات ، الجاحظ (مترجم) دمشق ، ١٩٦١

WWW.ATTAWEEL.COM